ملحمة الراعي النميري(**)

قصيدة الرفض والاحتجاج

(جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد الهاشمي، ج٢، ص ٩٢١ ــ ٩٣٨)

● د. مخيمر صالح ●

١. ما بال دفّك بالفراش مذيلا ؟ أقذى بعينكِ، أم أردتَ رحيلا ؟
٢. لمّا رأت أرقي، وطولَ تلدّدي ذات العشاءِ، وليلي الموصُولا
٣. قالت خليدةُ ما عراك ؟ ولم تكُنْ يوماً، إذا عرتِ الشؤونُ سؤولا
٤. أخليدُ، إنّ أباك ضاف وساده همّان، باتاجَنْبَةً ودخيلا
٥. طرقا، فتلك هماهمي، أقريهما قلصاً، لواقحَ كالقسيِّ وحولا
٦. شمّ الحوارك جُنَّحاً أعضادها صهباً، تُناسب شدقما وجديلا
٧. حوزيّة طويت على زفراتِها طيّ القناطِر، قد بَزَلْنَ بُزولا
٨. بنيت مرافقهنَّ فوق مزلَّةٍ لا يستطيعُ بها القُرادُ مقيلا
٩. كانت هجائن منذرٍ ومُحرِّقٍ أماتهنَّ وطَرْقُهنَّ فَحيلا
١٠. فكأنّ ريّضها إذا ياسرتها كانتْ معاودة الرَّحيل ذلولا
١١. وكأنّما انتطحت على أثباجِها فدُرٌ بشابة قد تمّمن وعولا
١٢. قذف الغدو إذا غدونَ لحاجةٍ دلف الرّواح إذا أردنَ قُفولا
١٣. قود تذراع غول كلُ تنوفة ذرع الموشّح مبرماً وسحيلا
١٤. في مهمهٍ قلقتْ بهِ هاماتُها قلق الفؤوسِ إذا أرَدْنَ نُصولا
١٥. وإذا تعارضت المفازة عارضتْ رَبذا يُغَلُ خلْفَها تبغيلا

١٦. رجل الحُداء كأنَّ في حيزومِهِ   قصباً، ومقنعة الحنينِ، عجولا
١٧. وإذا ترحّلَت الضّحى قذفتْ بهِ   فشأون غايتَه، فظلَّ ذميلا
١٨. يتبعن مائرةَ اليدين شمَّلةً   ألقَتْ بمنخرق الرّياح سليلا
١٩. جاءَت بذي رمق لِستَّةِ أشهرٍ   قد مات أو حبَّ الحياةَ قليلا
٢٠. لا يتخذن إذا علونَ مفازَةً   إلاَّ بياض الفرقدينِ دليلا
٢١. حتى وردْنَ لتمِّ خمسٍ بائصاً   جُداً تقارضَه السّقاةُ وبيلا
٢٢. سُدُما إذا التمس الدّلاءَ نطافه   صادفْنَ مشرفةَ المثابِ دحولا
٢٣. جمعوا قوىً مّما تضمُّ رحالُهم   شتى النّجارِ ترى بهنَّ وصولا
٢٤. حتّى إذا برد السّجال لهابها   وجعلنَ خلف غرُوضِهنَّ ثَميلا
٢٥. وأفضن بعد كظومهنَّ بجرَّةٍ   من ذي الأبارِقِ أورعينَ حقيلا
٢٦. جلسوا على أكوارِها فترادفَت   صخب الصَّدى، جرع الرّعانِ رحيلا
٢٧. ملس الحصى بائتْ توجَّس فوقَه   لغط القَطا بالجلهتينِ نزولا
٢٨. حتّى إذا انجابَ الدُّجى، وتلفتّت   ورأت أوابدَ، يرتعين هجولا
٢٩. حُذبَ السَّراة، وألحقت أعجازها   روح، يكون وقوعها تحليلا
٣٠. وجرى على حَدْب الصَّوى فطردنه   طردَ الوسيقَةِ بالسماوَةِ طولا
٣١. أبلغْ أميرَ المؤمنين رسالةً   تشكو إليك مظالماً وعويلا
٣٢. من نازحٍ كثرت إليك همومُه   لو يستطيعُ إلى اللّقاء سبيلا
٣٣. طال التقلُّب، والزمانَ ورابه   كَسَلٌ ويكرَه أن يكونَ كَسولا
٣٤. ضاف الهموم وساده وتجنَّبت   ريَّان يصبحُ في المَنامِ ثقيلا
٣٥. فطوى (البلاد) على قضاءِ صريمةٍ   بالجدّ واتّخذَ الزَّماعَ خليلا
٣٦. وعلا المشيب لداتِه، وخلَت له   حِقَبٌ، نَقضْنَ مريره المفْتُولا
٣٧. فكأنَّ أعظمه محاجنُ نبعةٍ   عوج قَدُمن فَقَدْ أردْن نُحولا
٣٨. كحديدةِ الهنديِّ أمسى جفنه   خلقاً، ولم يكُ في العظامِ نكولا
٣٩. تعلو حديدته، وتنكر لَونه   عين رأته في الشَّبابِ صقيلا
٤٠. إني حلفتُ على يمينٍ برّة   لا أكذبُ اليومَ الخليفةَ قيلا
٤١. ما زرت آل أبي خبيبٍ طائعاً   يوما أريدُ لِبيعتي تبديلا

٤٢. ولما أتيت نجيدةَ بن عويمر   أبغي الهُدى فيزيدني تضليلا
٤٣. من نعمةِ الرَّحمن لا مِنْ حيلتي   إني أعدّ له عليَّ فضولا
٤٤. وشنئت كلَّ منافِقٍ متقلِّبِ   ترك الزلازل قلبه مدخولا
٤٥. واهي الأمانةِ، لا تزال قلوصُه   بينَ الخوارج هزَّة وذميلا
٤٦. إذ كلُّهم أمسى يهمُّ ببيعةٍ   مسحَ الأكفِّ تعاوَرُ المِنْديلا
٤٧. أخليفةَ الرّحمن إنَّا معشرٌ   حُنفاءُ، نسجدُ بكرةً وأُصيلا
٤٨. عربٌ نرى للَّه في أموالِنا   حقَ الزّكاة منزَّلاً تنزيلا
٤٩. إنَّ السّعاةَ عصوك يومَ أمرتهم   وأتوا دواهِيَ لو علمتُ وغولا
٥٠. كتبوا الدُّهيمَ من العداء لمسرِفٍ   عادٍ، يريد خيانةً وغلولا
٥١. ذُخرَ الخليفةِ لو أحطتَ بعلمِه   لتركت مِنْه طائِفاً مفصولا
٥٢. أخذوا العريفَ، فقطَّعوا حيزومهُ   بالأصبحيَّةِ قائِماً مغلولا
٥٣. حتَّى إذا لم يتركوا لعظامِه   لحماً ولا لفؤاده معقولا
٥٤. جاءوا بصكهم وأحدب أسأرت   مِنْه السّياط يراعة إجفيلا
٥٥. نسي الأمانةَ من مخافةِ لقَّح   شُمس تركنَ بَضِيعَهُ مجزولا
٥٦. أخذوا حمولته فأصبَح قاعداً   لا يستطيع عن الدّيارِ حويلا
٥٧. يدعو أمير المؤمنين ودونه   خبتٌ تجُرُّ بهِ الرِّياح ذيولا
٥٨. كهداهد كسر الرماة جناحَه   يدعو بقارعةِ الطَّريق هَديلا
٥٩. وَقْعَ الرّبيعِ وقد تقارَب خطوُهُ   ورأى بعقوتِهِ أجشَّ نسولا
٦٠. متوشح الأقرابِ، فيه نهمةٌ   نهش اليدينِ تخاله مشكولا
٦١. كدخانِ مرتجِلٍ بأعلى تلعةٍ   غرثانَ ضرَّم عرفَجاً مبلولا
٦٢. أخليفةَ الرّحمن إنَّ عشيرتي   أمسى سوامُهم عزين فلولا
٦٣. قومٌ على الإسلامِ لمَّا يتركوا   ماعونهم ويضيِّعوا التهليلا
٦٤. قطعوا اليمامة يُطردُون كأنَّهم   قومٌ أصابوا ظالمين قتيلا
٦٥. يحدون حُدباً مائلاً أشرافها   في كلِّ مقربة يدعن رعيلا
٦٦. حتى إذا حُبِسَتْ تُنُقِّيَ طِرْقُها   وثنى الرُّعاة شكيرها المنجولا
٦٧. شهري ربيع ماتذوق لبونهم   إلاَّ حموضًا وخمة، وذويلا

٦٨. وأتاهُم يحيى فشدَّ عليهم   عقداً يراه المسلمونَ ثقيلا
٦٩. كُتُباً تركن غنيَّهم ذاخلَّةٍ   بعد الغِنى وفقيرَهم مهزولا
٧٠. فتركْتُ قومي يقسمون أمورَهم   أإليك، أم يتلبثُون قليلا
٧١. أنت الخليفةُ، عدلهُ ونوالُه   وإذا أردتَ لظالمٍ تنكيلا
٧٢. فارفع مظالِمَ عيّلت أبناءَنا   عنَّا وأنقِذْ شِلونا المأكولا
٧٣. فنرى عطيةَ ذاك إن أعطيتَه   من ربِّنا فضْلاً ومنك جزيلا
٧٤. إنَّ الذين أمرتَهم أن يعدِلوا   لم يلْغوا مِمَّا أردتَ فتيلا
٧٥. أخذوا الكرامَ من العشار ظُلامةً   منَّا وتُكْتَبُ للأميرِ أفيلا
٧٦. فلئن سلمتُ لأدعونَّ بظعنةٍ   تدَعُ الفرائضَ بالشّريفِ قليلا
٧٧. وإذا قريشٌ أوقدَت نيرانها   وبلت ضغائن بينها وذحولا
٧٨. فأبوك سيّدها وأنتَ أشدُّها   ومن الزلازِل في التَّلاتِل جُولا
٧٩. وأبوكَ ضاربَ بالمدينة وحدَه   ضرباً ترى مِنه الجميع شكولا
٨٠. قتلوا ابن عفَّان الإمام تعدّيا   ودعا فلم أرَ مثله مخذولا
٨١. فتصدَّعت من يومٍ ذاك عصاهمُ   شققا وأصبحَ سيفُهم مسلولا
٨٢. حتّى إذا نزلتْ عجاجةَ فتنةٍ   عمياءَ كانَ كتابُها مفعولا
٨٣. ورثت أميّةُ أمرَها، فدعَت له   من لم يكُن غُمْراً ولا مجْهولا
٨٤. مروان أحزمها إذا حلّت به   حدب الأمور، وخيرها مسؤولا
٨٥. أيام رفَّع بالمدينة ذيلة   ولقد يرى زرعاً بها ونخيلا
٨٦. وديار ملك خرّبتها فتنة   ومشيّداً فيه الحمام ظليلا
٨٧. أيّامَ قومي والجماعة كالذي   لزم الرَّحالة أن تميل مميلا

● ● ●

إن أول ما يواجهه الدّارس المتعمق لملحمة الراعي النميري، مدى صحة تصنيف القدماء والمحدثين للقصيدة على أنها في «مدح عبد الملك بن مروان، والشكوى من السعاة والعاملين»(١). أما أنها في الشكوى من السعاة والعاملين؛ فهذا صحيح، وتفصح عنه القصيدة بوضوح وبصراحة في كثير من أبياتها، وأما أن تكون القصيدة في مدح عبد الملك

ابن مروان؛ فهذا ما لا يخرج به المتعمق فيها، فالقصيدة لا يوجد فيها بيت واحد في مدحه، ذلك المدح الذي ألف الخلفاء سماعه من الشعراء، وأبيات المدح القليلة التي وجدت في القصيدة، هي في مدح مروان، ولعل هذا هو الذي أدى بالعلماء كي يصنفوها هذا التصنيف، وحتى في هذا المدح القليل؛ لم يكن الشاعر يمدح «مروان» أو «عبد الملك ابنه»، وإنما كان يتغيًّا منه شيئاً واحداً، هو حث عبد الملك كي يكون حازماً قوياً، مثلما كان أبوه قوياً حازماً في أيام الفتنة. إن الشاعر يريد أن يشير إلى أن عهد عبد الملك، يشهد فتنة لا تقل عن الفتنة التي شهدها عهد مروان، وكيف أنه استطاع بقوته وحزمه أن يخمدها.

يقول الرّاعي عن مروان :

مروان أحزمها إذا حلَّت به   حدب الأمور وخيرها مسؤولا

ويخاطب عبد الملك قائلاً :

أنت الخليفة عدله ونواله   وإذا أردت لظالم تنكيلا
فارفع مظالم عيَّلت أبناءنا   عنّا وأنقذ شلونا المأكولا

فالقصيدة في مجملها شكوى وصراخ(٢).

وليس هذا فقط، إن الرَّاعي هدَّد وتوَّعد بالخروج والتمرد عندما قال :

فلئن سلمتُ لادعونَّ بطعنةٍ   تدَع الفرائضَ بالشريف قليلا ؟؟؟

وتقول الأخبار : إن عبد الملك قال للراعي بعد أن سمع هذا البيت : فأين أنت من الله والسلطان لا أُمَّ لك ؟ فأجابه الرّاعي يا أمير المؤمنين : من عامل إلى عامل، ومصدق إلى مصدق.

لقد كان عبد الملك أكثر فهماً للقصيدة من بعض الناس. ذلك أنه قال للرّاعي بعد سنةٍ عندما قدم إليه مادحاً : أنت العام أعقلُ منك عامَ أول(٣).

يقول الراعي من القصيدة الثانيةِ هذه مادحاً عبد الملك بن مروان :

أنتَ الحيا وغياثٌ نستغيث بِه(٤)   لو نستطيع فداك المال والولد

بل إنَّ الرَّاعي يرجو عبد الملك رجاءً إذ يقول :

نرجو سجالاً من المعروفِ تنفحها   لسائليك فلا مَنٌّ ولا حسَدُ

إن فطنة عبد الملك؛ جعلته لا يحس إحساس الممدوح بل إحساس المتهم من خلال عمّاله المقصرين. هذا فيما يتعلق بعبد الملك. أما فيما يتعلق بالشاعر، فالواضح أنَّ القصيدة لا تكشف أنَّ الباعث الحقيقي كانَ مدحاً، بل كان الباعثُ احتجاجاً ورفضاً للسياسة الاقتصادية، إذ أنَّ بداية القصيدة تكشف عن همٍ مطبِق ألَمَّ بالشاعر، وليس ذلك ما يحسُّ به الشاعر المادح عادة. ثم إن الرّاعي يقول : فلئن سلمت ....» وليس هذا ما عوّدنا سماعه الشعراء المدّاحون : إنَّ الشاعر كان يخشى غضب الخليفة وبطشه، و لم يكن يأمُل العطايا والهبات كما هو الشأن مع الشعراء والمدّاحين.

وليس صحيحا ما ذكرته الدكتورة عزيزة فوال نقلا عن خزانة الأدب أنه قال : «من لم يرو قصيدتي في مدح عبد الملك بن مروان التي أشكو فيها من السعاة ...... من ولدي فقد عقني»(٥). والرّواية كما جاءت على وجه الدقة هي : «... وهي قصيدة جيدة كانَ يقول : من لم يرو لي من أولادي هذه القصيدة وقصيدتي التي أولها بان الأحبة – وهي في هذا المعنى أيضاً – فقد عقني(٦)» فلم يذكر كما جاء في الرّواية أنه مَدح عبد الملك بن مروان البتة.

إن الرفض والاحتجاج، هما الطابع العام لهذه القصيدة، فكل جانب من جوانبها يشير إلى ذلك، وليس بعيداً أن يكونَ حرف الرَّوي لهذه القصيدة يشير إلى ما ذكرناه، فقد جاء روي القصيدة «لا» وهو حرف له دلالته الكبيرة فكأن الراعي يقول في قصيدته «لا» عدد أبيات القصيدةِ بشكْلٍ واضح بارز.

إن المفهوم الذي انتهت إليه النظرة المتعمقة للقصيدة، يقود إلى أن القصيدة تطرح موضوعاً واحداً، وتثيرُ قضيَّةً واحدةً أحسَّ بها الشاعر، وعبَّر عنها، هي الشكوى والاحتجاج، غيرَ أنَّ الشاعر قد نهج نهجاً جديداً في قصيدته هذه. وهي خاصية امتاز بها الراعي وذكرها له ابن سلاَّم في طبقاتِه حيث يقول عن الراعي : «وكان يقال له في شعره : «كأنَّه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي أنه لا يحتذى شعر شاعر ولا يعارضه(٧)».لقد طرح الشاعر قضيته طرحاً عميقاً على شكل لوحات فنية مختلفة من خلال عوالم تقليدية، وبخاصة رحلة الإبل واستخدم الشاعر لتشكيل لوحاته ألفاظاً صعبة موحية معقدة تتناسب مع موضوع الإبل وعالم الرّعاه، وليس هذا بغريب على شاعر لُقب بالرَّاعي لكثرة ما وصف الإبل ورعاتِها.

ومثال ذلك :

قلص، لواقح، الحوارك، حويزة، بزلن، مزّلة، ريّض، أثباجها، دلف الرّواح، تتوفة، ربداً،

ذميلاً، مائرة ..... وهكذا،وهذا هو المستوى الأول.

أما المستوى الثاني فجاء بمنتهى الوضوح واليُسر، إذ عرض الشاعر موضوعه بوضوح تام لا يستعصي فهمه على أحد، لا على أفراد قبيلته، ولا على العمال الذين شكاهم، ولا على الخليفة، حتى ولا على ابنته التي خاطبها في بداية القصيدة، واستخدم ألفاظا سهلة واضحة، ويحس القارىء بسهولة اختلافاً ما بين المستويين، الأمر الذي قد يدفع بعض القارئين لقصيدة الرَّاعي إلى أن ينتهوا الى أن القصيدة ذات موضوعين : الأول : الإبل والرحلة، والثاني : الشكوى والاحتجاج، وما يتصل بالموضوعين من تصوير للهم والأرق وعريف القبيلة أو الحديث عن مروان بن محمد، وهذا ما أشار إليه أبو زيد القرشي عندما سمّى هذه القصيدة «مُلحمة» أي القصيدة التي تتلاحم أجزاؤها بعضها ببعض، ومن هنا أقول : إنَّ القصيدة ذات موضوع واحد، وما الأجزاء التي جاءت في القصيدة إلا أبعاد أو صور أو لوحات تتَّحد وتتجمع لتشكِّل الموضوع الأساس، واتَّبع الشاعر كذلك مستويي تعبير كما ذكرت لقد طرح الشاعر موضوعه. في المستوى الأول بريشة الفنان، الشاعر المحلق فجاءت بهذه الصورة. أما في المستوى الثاني : فكان يعبِّر عن قضيته بقلم المحامي[8] بل إنه استخدم أساليب المحامين وطرائقهم، من حيث عرض القضية والاحتجاج لها ودفع الاتهام، والتماس إحقاق الحق وغير ذلك.

وكان على الرّاعي - كي يُقنع أكثر - أن يستخدم ألفاظاً واضحة صريحة مثل : رسالة، عويلا، مظالما، التقلّب، المنام، كسولا، حلفت، يمين، أكذب، طائعا، عرب، أموالنا، الزكاة، تنزيلا، الرّحمن، منافق، وهكذا.

ولذلك فإنّ المستوى الثاني بوضوحه وسهولة فهمه، يعين على فهم المستوى الأول، وهذا ما يدعو إلى القول بأنَّ القصيدة تمتازُ بوحدة موضوعية وعضوية، فهي وحدة واحدة من المشاعر والأحاسيس متلاحمة الأجزاء كما عبر عن ذلك القرشي أبو زيد.

إن المدخل لفهم قصيدة الراعي بمستوييها، يتمثل في متعادلين مترابطين، الأول : التأزم الذي عاشه الرّاعي الشاعر، أو الانغلاق، وهو هنا الأرق، الهم، الاضطراب، الخوف. والثاني : التوازن أو الانعتاق وهو هنا، الوضوح، الصراحة، الشكوى والاحتجاج، طلب رفع الظلم ومعاقبة الظالمين وهذان البعدان - التأزم - والتوازن - لا تستغني عنهما عملية شعرية ناجحة.

بدأ الشاعر قصيدته ببداية ألفناها عند غيره من الشعراء، تتمثل تساؤل من أحد الناس عن قلق الشاعر وأرقه، غير أن الرّاعي كان متفرداً في هذه البداية. فهو لم يصرّح عن المتسائل إلا في ثالث بيت، ومعنى هذا وضع السامع أو القارىء في جو مغلق متأزم، وفي البيت الثاني يعرف القارىء أن المتسائل كان امرأة، ولم تكن هذه المرأة حبيبة أو زوجاً كما اعتاد الشعراء كأبي ذؤيب مثلاً، ولكنّها كانت عند الرّاعي ابنته، وهي عنصر أقل إدراكاً لهموم الوالد من الأم فقلما تحسُ بما يعانيه أبوها. وقد يكون حضور شخص الابنةِ في قصيدة الرّاعي راجعاً أيضا إلى أن الرّاعي وهو المصمم على عرض شكواه، لم يمنعه حبّه المكين لابنته، وشدة تعلقها به، من تنفيذ فكرته والسَّفر إلى الخليفة كي يسمعه شكواه. يقول :

ما بالُ دفك بالفراشِ مذيلا   أقذىً بعينيكَ أم أردتَ رحيلا
لما رأت أرقي وطولَ تلددي   ذاتَ العشاءِ وليلِيَ الموصولا
قالت خليدة ما عراك ؟ ولم تكُنْ   يوماً إذا عرتِ الشؤْون سؤولا

ولعل مما يؤكد هذا الفهم؛ أن الرّاعي أتى بصورة خليدة وموقفها هذا في قصيدة أخرى ولكن بصورة أوضح عندما شكا السعاة أيضا حيث يقول(٩) :

قامت خليدةُ تنهاني فقلتُ لَها   إنَّ المنايا لمقيات له عدد

أما إجابة الرّاعي على تساؤل ابنته؛ فجاءت عامة غير محددة أو واضحة في البيت الرابع – وعدم التحديد ينسجم مع روح التأزم أو الانغلاق.

يقول الرّاعي :

أخليدُ إنَّ أباكَ ضاف وسادَه   همّان بائا جنبةً ودخيلا

ولكنه لم يبين طبيعة هذين الهمين أو ما هما، لكنه وصفهما لتضخيم أثرهما عليه. إن الاستعارة المكنية ليست كل ما في البيت السابق، وإنما حملت كل لفظة فيه شيئاً، مما كان يدور في خلد الرّاعي، إنّ الضيافة المقصودة عند العرب لم تكن الا للسيِّد المأمول. ثم إنّ ضيافة الليل تشير إلى خطورة الأمر وأهميته، فما بالك إذا داهم الضيفُ مخدع المضيف، ولم يكن ضيفاً بل ضيفين أي همين ملكا عليه نفسه وأرقاه. وبالرغم من محاولات كشف الانغلاق من خلال هذا التحليل ما زال السؤال قائماً، ما هما هذان الهمان ؟ وهنا يأتي دور المستوى الثاني في التعبير الواضح الصريح، لقد كشف الشاعر في هذا الجزء عن أثر

هذين الهمين في جسمه، إذ نحل ودق، واشتعل شيب رأسه، وشحب لونه. يقول :

وعلا المشيبُ لداته وخلت لـــه   حـقب نـقضن مريـره المفتـــولا
فكـأن أعظمَـه محاجـنُ نبعـــةٍ   عـوج قَدُمـن فقدْ أردن نحـولا
كحديدةِ الهنديّ أمسى جفنُـــه   خلقا ولم يكُ في العِظام نكـولا
تعلـو حديدتَـه وتنكـر لونَـــه   عينٌ رأته في الشَّبابِ صقيـــلا

ويكشف المستوى الثاني بشكل أوضح عن طبيعة هذين الهمين إذ يقول الشاعر :

أبلـغْ أميـرَ المؤمـنين رسالـــةً   تشكـو إلـيكَ مظـالما وعويـــلا
من نازحٍ كثرتْ اليك همومُـــه   لـو يستطيعُ إلى اللّقاءِ سبيـــلا
طال التقـلب والزمـان ورابـــهُ   نحل ويكرهُ أن يكونَ كســـولا
ضاف الهمـوم وساده وتجنبـــت   ريَّان يصبـح في المنـام ثقيـــلا

واعتماداً على ما سبق، يمكن أن يكون الهمان هما : همُّ القبيلةِ وما لَحق بها من جور وظلم، وهذا الهم حمله الرّاعي لأنه كان المتحدث باسمها، وكان زعيماً لقبيلته إذ ورث الزعامةَ والسيادة عن والده. وهم ذاتي هو خوفه من نتيجة اللقاء المرتقب، وهذا الإحساسُ حفزه للقول :

أبلِغ أمير المؤمنين رسالةً ....
وجعله يقول مرة : فلئِنْ سلِمْتُ ....

إن الراعي كما تكشف القصيدة بمستوييها، عاش صراعاً أسلَمه لتلك الحال التي تحدَّث عنها في بداية قصيدته، وممَّا قوى من الصراع ما عُرِف عن الرَّاعي من كرهٍ لبني أميةَ وقال فيهم أشعاراً منها :

بني أميـة إن اللـه ملحقكـــم   عمّا قريبٍ بعثمانِ بن عفـــان(١٠)

غير أنه حسم الصراع الذي لفَّه بقوله :

طرقا فتلك هما همي أقريهما ....

لأن من عادة المضيف أن يكرم ضيفه، فكيف كان كرم الرّاعي ؟ أما في المستوى الأول، فكان الكرم نياقا قوية سمينة كثيرة مشهورة، أصيلة، وكل هذه الصفات تصب في قناة القوة

والشرف والسؤدد، وهي صفات أحسَّ بها الرّاعي في نفسه يقول : قلصا لواقح كالقسي وصولا ....، شم الحوارك، تناسب شدقما وجديلا، .... بنيت مرافقهن فوق مزلة ..... وهكذا.

فماذا قدَّم الرّاعي في المستوى الواضح المكشوف ؟ لقد قدَّم وثيقةً أو رسالة، كما سماها – يشرح فيها في مواجهة مع عبد الملك، موقفه وموقف قبيلته من بني أمية، بتسلسل أقرب إلى أسلوب المحامين، فقد بدأ «مرافعته» بالقسم على قول الحق.

يقول :

إني حلفت علي يمينٍ برَّة   لا أكذبُ اليومَ الخليفة قيلا

ثم دفَع التهمة الموجهة إليه، بأنَّه مع الفِرق الأخرى المناوئة لبني أمية كالزبيريين أو الخوارج، الأمر الذي جرَّ عليه وعلى قبيلته كلَّ ما كان. فقد كان الأمويون ينتقمون من القبيلة كلها إذا تبين أن زعيمَها أو شاعرها يتعاطف مع فرقٍ أو أحزاب أخرى، واعتماداً على ماض غَبر، يرجع إلى يوم مرج راهط عندما وقفت قبيلة نمير إلى جانب قيس عيلان ضد الأمويين، صنف الأمويون النميريين زبيريي الهوى، ولهذا ألحَّ الرّاعي على رفض هذا «التصنيف السياسي» ومحاولة محو هذا الماضي، فمرة يمدح بشر بن مروان بقوله :

فلو كنتُ من أصحابِ مروانَ إذ دعا   بعذراء يممت الهدى إذ بداليا
ولكنني غيِّبت عنهم فلم يطع   رشيدٌ ولم تعص العشيرة غاويا(١١)

ومرة أخرى يقول في هذه القصيدة :

ما زرت آل أبي خبيب طائعاً   يوما أردتُ لبيعتي تبديلا
ولما أتيتُ نجيدةَ بين عويمر   أبغي الهُدى فيزيدُني تضليلا

ثم يخاطب الرّاعي عبد الملك مستخدماً لفظتين لهما تأثيرهما الخاص، فكأن الرّاعي يذكره بمعانيهما، وهما الخلافة، والرحمة، فيقول :

«أخليفة الرّحمن»، (البيت٤٧) ذخر الخفيفة (البيت ٥١)، «يدعو أمير المؤمنين» (البيت ٥٧). ويشير الرّاعي إلى أنه وقبيلته مسلمون أحناف يستحقوق الرحمة والعدل، ويقومون بالفرائض حق قيام.

يقول :

أخليفة الرّحمن إنّا معشر   حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله في أموالنا   حق الزكاة منزَّلاً تنزيلا

وكلمة «عرب» في البيت الثاني ما هي إلا محاولة حاولها الرّاعي لتوجيه أنظار عبد الملك إلى مبدأ طالما عزف عليه الأمويون وهو «العرب والعروبة».

وبعد دفع التهمة، عرض شكواه ومظلمته باسم القبيلة، وذلك بأسلوب مؤثر، مستخدما الصور الواقعية، كشفت السعاة المزورين، المحتالين، العتاة، المختلسين لأموال الزكاة، والذين أهانوا عريف القبيلة. وضربوه ضرباً مبرحاً وأكرهوه تحت وطأة التعذيب على كتابة «صك» كاذب. يقول :

إن السعاةَ عصوكَ يوم أمرتَهم   وأتوا دواهِيَ لو علمتَ وغولا
كتبوا الدّهيم من العداء لمسرف   عادٍ يريدُ خيانةً وغلولا
ذخرُ الخليفةِ لو أحطتَ بعلمِهِ   لتركتَ مِنه طائفاً مفصولا
أخذوا العريف فقطَّعوا حيزومه   بالأصبحيةِ قائماً مغلولا

أما لوحة الإبل وارتحالها في المستوى التعبيري الأول؛ فتقابل في المستوى التعبيري الثاني، قبيلة الشاعر وأفرادها، فإبل الشاعر قوية سمينة أصيلة، وهي صورة قريبة إلى حد كبير من قبيلة الشاعر ذات السؤدد والمركز والقوة قبل المحنة التي ألمَّت بها. غير أنَّ هذه الإبل تعرضت لأكثر من اختبار صعب بعدما خطت خطوات ليست بالكثيرة، مما أفقدها القدرة على مواصلة الرحلة، فقد ألمَّ الإعياء بقائدة الركب «المائرة» فأُجهدت، ممّا أدى إلى إجهاضها فولدت «سليلا» قبل موعده في العراء، في مهب الريح، حيث البرد وقسوة الحياة، يقول :

يتبعنَ مائرةَ اليدينِ شملَّة   ألقتْ بمنخرقِ الرياحِ سَليلا
جاءت بذي رمقٍ لِستَّةِ أشهر   قد ماتَ أو حَبَّ الحياةَ قليلا

وسبب هذا الضعف ليس الرّحلة فقط، بل سوء التغذية التي كانت عليها الإبل، فهي كما عبر الشاعر :

شهري ربيع ما تذوق لبونهم   إلا حموضاً وخمة وذويلا

إن صورة «السليل» الضعيف الهزيل الذي مات أو كاد يموت، تقابل أبناء قبيلة الشاعر الذين يتضورون جوعاً ويموتون من الهزال، يقول الشاعر عنهم :

كُثباً تركْنَ غنيَّهم ذاخلةٍ   بعد الغِنى وفقيرهم مهزولا

وصورة «السليل» الذي قُذف في العراء. هي صورة عريف القبيلة أيضاً، الذي ضربه عمال الصدقات، حتى بدا لا يقوى على الحراك، فألقوه في فلاة واسعة بل إن الشاعر استخدم كلمة «خرق» ...... تجُرّبِه الرياح ....، وهي الألفاظ التي استخدمها لرسم صورة «السليل» على وجه التحديد. يقول :

أخذوا حمولته فأصبح قاعداً   لا يستطيعُ عن الديار حويلا
يدعو أمير المؤمنين ودونه   «خرق» تجرُّ بهِ الرياحُ ذيولا

وصورة الإبل التي فقدت صوى الطريق ومعالمها، فلم تجد لها دليلاً إلا نجمين «فرقدين» وهما نجمان لا يغربان باعتقاد العرب، إنّ هذه الصورة في المستوى الأول تقابل في المستوى الثاني صورة قبيلته التي تشتت جمعها، وقطعوا الفيافي «اليمامة» خائفين كأن قوماً يطاردونهم لإدراك ثأر عندهم، وصورة القبيلة هذه معناها أنها افتقدت «الرائد» الذي اعتادت العرب أن تتبعه وتسير وراءه لأنه أدرى بمعالم الطرق ومسالكها، إنّ الرّائد في هذه القصيدة الذي يتشوق إليه الشاعر وذكره أكثر من مرة هو «عدل الخليفة» كما قال الشاعر، وهذا مصدره سماوي أيضاً.

● الهوامش ●

(١) جمهرة أشعار العرب. القرشي ج ٢، ص ٩١٢.
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي. شوقي ضيف، ص ١٢٨.
(٣) طبقات فحول الشعراء ٥١١/١.
(٤) ديوان الرّاعي النميري، ص ٦٤.
(٥) العصر الأموي أدبه وحضارته، عزيزة فوّال بابتي،ص ٤٥٥.
(٦) خزانة الأدب، البغدادي. (تحقيق عبد السلام هارون) ١٤٦/٣.
(٧) طبقات فحول الشعراء، ج ١، ص ٥٠٢.
(٨) تاريخ الشعر العربي، محمد عبد العزيز الكفراوي. ج ٢، ص ٣٧٦.
(٩) ديوان الرّاعي، ص ٦٣.
(١٠) ديوان الرّاعي، ص ٢٦٢.
(١١) ديوان الرّاعي النميري، ص ٢٨٦.

• معاني الكلمات •

(**) هو عبيد بن الحصين بن جندل بن قطب بن عبد الله بن الحارث بن نمير بن عامر. شاعر إسلامي، عاصر الفرزدق وجرير، وعدّة النقاد من طبقتهم. انظر عنه : طبقات فحول الشعراء، (تحقيق محمود شاكر) ج١/٥٠٢ الشعر والشعراء، تحقيق، أحمد شاكر، (١/٤٢٢).

(١) الذف : الجنب. مذيل : مريض.
(٢) تلذدي : قلقي واضطرابي.
(٤) جنبة : ظاهر، دخيل : باطن.
(٥) الهماهم : الهموم. قلص : الإبل الفتية.
(٦) شمّ : مرتفعة. الحوارك : مفردها حارك وهو أعلى الكاهل. شدقم وجديل : فحلان يضرب بهما المثل.
(٧) حوزية : شديدة النفس. طويت على زفراتها : منفوخة. بَزَلَن : يعني بلغت السنة التاسعة.
(٨) مرافقهن : أكتافهن. مزلة : ملساء بسبب سمنتها. مقيلا : مكانا.
(٩) هجائن : مفردها هجان وهي البيضاء الكريمة. محرّق والمنذر : من ملوك العرب اشتهروا بإبلهما الكريمة. طرقهن : محلهن.
(١٠) الرّيض : الناقة أول ما تراض.
(١١) الأثباج مفردها ثبج وهو الظهر. القدر : مفردها فادر وهو الوعل المسن.
(١٢) قذف : سريعة كأنها تقذف نفسها. دلفت : متقاربة الخطو فهي بطيئة.
(١٣) قود : طوال. تنوفه : مفازة.
(١٤) مهمة : صحراء أو فلاة، هاماتها : رؤوسها. نصولاً : خروجاً.
(١٥) الزّبد : الحادي السريع. التبغيل : نوع من السير.
(١٦) زجل الحداء : رفيع الصوت. العجول : الثكول التي ترفع صوتها حزناً.
(١٧) ترحلت : ارتفعت. شأون : سبقن. الذميل : السير اللين السريع.
(١٨) مائرة : سريعة. شملة : الخفيفة. السليل : الولد.
(١٩) الفرقدان : نجمان في السماء.
(٢١) لم تخمس : ترد في اليوم الخامس بعد ورودها الماء. البائص : البعيد. الجدّ : البئر في الموضع الخصيب. تقارضه : تعاقبه. وبيل : وخيم.
(٢٢) سدم : متدفق. نطاف : الماء القليل. المثاب : الحجر الذي يقوم عليه المستقي. دحول : واسعة الجوانب.
(٢٣) شتى النجار : مختلفة الألوان.
(٢٤) السّجال : الدلاء. اللهاب : العطش. الثميل : بقية العلف في بطن البهائم. غروض جمع غرض وهو حزم الرّحل
(٢٥) أفضن : دفعن. الكظم : امساك الفم.
(٢٦) أكوارها : مفردها كور وهو الرّحل. الصخب : الضخم. الصدى : الصوت. الجرعان : أنوف الجبال.
(٢٧) الجهلتان : جانبا الوادي. توجس : تسمع. اللغط : الصوت.
(٢٨) الدّجى : الظلام. الأوابد : الوحش. هجولا : جماعة.
(٢٩) حدب السراة : حدب الظهور. تحليلا : من خفة الوطء.
(٣٠) الصوى : ما غلظ وارتفع من الأرض. الوسيقة : الناقة التي تطردها الإبل عن الماء. السّماوة : ماء بالبادية.
(٣٤) رجل ريّان : كثير اللحم.
(٣٥) صريمة : عزيمة. الزماع : الجد في الأمر.
(٣٦) لدات : مفردها لدة وهي من ولد معه. حقب : مفردها حقبة : سنة. مريرة : عزمه. المفتول : القوي المحكم.
(٣٧) محاجن : مفردها محجن عصا معقفة الرأس. نبعة : شجرة.
(٣٨) الهندي : السيف. جفنه : غمدة. خلقاً : بالياً.

(٤١) أبو خبيب : هو عبد الله بن الزبير.
(٤٢) نجيدة بن عويمر : هو نجدة بن عامر من الخوارج.
(٤٤) الزلازل : الشدائد. مدخول : فاسد.
(٤٦) تعاور : تناوب وهنا تناول.
(٤٩) الدواهي : مفردها داهية. الغول : المهلكة.
(٥٠) الدهيم : الشر والمصيبة.
(٥٢) العريف : القيم بأمور القبيلة. حيزومه : صدره. الأصبحية : السياط منسوبة الى ذي الأصبح ملك من ملوك حمير.
(٥٤) أسأرت : أبقت. براعة : قصبة. أجفيلا : ذكر النعام.
(٥٥) لقح : السياط شبه أذناب الإبل. خمس : ناقوة. بضيعة : لحمه. مجزول : مقطوع.
(٥٦) حويلاً : تحويلا.
(٥٧) خبت : ما اتسع من الأرض. الخرق : الفلاة الواسعة.
(٥٨) الفداهد : الحمام أو الهدهد. الهديل : فرخ حمام كن على عهد نوح ومات عطشاً فبكته الحمام حزناً عليه.
(٥٩) وقع الربيع : ضرب المطر للأرض. العقوة : ساحة الدار. أجش : شديد الصوت. نسولا : الذئب السريع.
(٦٠) الأقراب : الخواصر. النهمة : شدة الرغبة في الأكل من النهم. نهش اليدين : خفيف العدو. مشكولا : لا يستقيم عدوه.
(٦١) المرجل : الموقد تحت النار. تلعة : ما ارتفع من الأرض. غرثان : جوعان. العرفج : نبات.
(٦٢) السوام : الإبل الراعية. عزين : متفرق. فلول : منهزمة.
(٦٣) الماعـون : الزكاة.
(٦٥) يحدون : يسوقون : الحدب : الإبل الهزيلة. أشرافها : أسنمتها. الزعل : القطيع.
(٦٦) تنقي : تخير. الطرق : الشحم. الشكير : صغار الشجر. المنجول : المقطوع بالمنجل.
(٦٧) ذويلا : النبات اليابس لا فائدة فيه.
(٧٥) العشار : النوق الحوامل. أفيلا : الصغير من الإبل.
(٧٦) الظعنة : الرحلة. الفرائض : مفردها فريضة وهو كل ما فرض عليه الزكاة. الشريف : أرض قبيلة الراعي.
(٧٧) بلت : اختبرت. ذحول : مفردها ذحل وهو الثأر.
(٧٨) الثلاثل والزلازل : الشدائد. الجول : الحكيم العاقل.
(٧٩) الشكول : الشبه والمثل.
(٨٢) عجاجة : غبار المعارك والحروب.
(٨٣) الغمر : قليل التجربة والخبرة.

● المراجــع ●

(١) تاريخ الشعر العربي، محمد عبد العزيز الكفراوي، (دار النهضة مصر، ط١، ١٩٦٧م).
(٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، (ط ٣، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م).
(٣) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي، تحقيق محمد علي الهاشمي، السعودية لجنة البحوث والترجمة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م).
(٤) خزانة الأدب، البغدادي (ط ١، مصر، المطبعة الميرية).
(٥) ديوان الراعي النميري، جمعه وحققه راينهرت فايبرت، (بيروت، ١٠٤١-١٩٠٠هـ).
(٦) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، (القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٧٤م).
(٧) العصر الأموي، أدبه وحضارته، عزيزة فوّال بابتي، (بيروت، دار الإنشاط، ط ١، ١٩٨٤م).